عن كتاب (النجف في ربع قرن).

الثورة النجفية سنة ١٩١٨

أو

قبس الثورة العراقية الكبرى

بقلم : الاستاذ محمد علي كمال الدين

٧

١٢ — مخاوف المتحار بين والسياسة العسكرية

لقد درس الانكليز في هذه المعركة (المعركة الاولى) قوة النار التي واجهوها وعرفوا استحالة الفوز عنوة فلجأوا الى درس حالة النجف وجددوا المفاوضة لتكون سبيلا لالقاء بذور الفتنة بين النجفيين انفسهم وعاد زعماء الحزب المحايد المسلحين الى التوسط بامر المفاوضة فكانت هذه المفاوضة فرصة ثمينة اطلع فيها المحتلون على حالة الثوار والبلد العامة فقد تضعضعت معنوية الثوار من جراء النار التي شهدوها ومن سخط النجفيين الذي تجلى بعد هذه المعركة سيما وقد مض السغب بالناس وعمت المجاعة حتى بلغ سعر وزنة الحنطة خمس ليرات ذهباً وفقدت أو اخفيت جميع المواد الضرورية والكمالية واضطر بعضهم الى ذبح الحمير للاستفادة من لحومها وخوفا عليها من الهلاك جوعا ، فبيعت في السوق علانية ، اما الماء فقد من الله برحمته فانزل امطاراً اسبوعية فلم يبلغ الضما مبلغ الجوع ولم يضطر الاهلون كثيراً الى مياه الآبار (الشاهية) المرة على ان الجيوش عملت على ردم الآبار وقناتها التي كانت تصل النجف بالفرات بان استخدمت بنائي الكوفة في ذلك؛ والمشكلة مشكلة الغذاء في مدينة ذات واد غير ذي زرع غير ان تمر البصرة المكدس انقذ الموقف فقد كان رخيصا وكثيراً فاصبح الغذاء الوحيد لكثير من النجفيين ومع ذلك فقد هلك بعض الفقراء جوعا وكذلك هلكت جميع الطيور والقطط؛ ومن اغرب ماشاهدت ان القطط اضطرت الى اكل التمر (ولم تكن معتادة على اكله في النجف قبلا) ولم انس منظرها المحزن وهي تتقلب في الطرقات بكثرة وكأنها تستنجد المارة بموائها وظراتها وهي تعالج سكرات الموت جوعا وقد اصبح السواد النجفي في حيرة عظيمة وفي خوف واضطراب عظيمين من سوء العاقبة فما اذا دخل الجيش الى البلد المقدس فاتحا مستبيحا فكانوا يملأون الجوامع وادعيتهم وتضرعاتهم تتصاعد الى السماء لعل الله يزيل هذه الكارثة . وانتهز المحايدون فرصة عودة الانكليز الى المفاوضة ولم يمانع الثوار أو انهم لم يستطيعوا المنع عن مقابلة قائد الحملة وحاكمها السياسي (بلفور) في بناية الحامية التي تمت صلتها بالجيش في الكوفة وتعددت هذه المقابلات والرسل ومنها وقفت القيادة على وضع البلد العام وعلى معنوية الثوار المحطمة ومبلغ قوتهم ومراكز ضعفهم وانقسام البلد وسخط معظمها على الثوار . لذلك اصر القائد على تصلبه في مطاليبه ولو ان الثوار لا يزالون يفضلون النزال على الاستسلام ولكن الوسطاء لم تنقطع مفاوضاتهم فكان اذ دبر امر الهجوم الاخير وفازت السياسة العسكرية فوزاً مبيناً .

١٣ — الاستيلاء على التل وعلى المدينة

عند بزوغ ٧ نيسان سنة ١٩١٨ بدأ قصف المدافع على التل الجنوبي باقصى هوله ودام خمسين دقيقة تقريباً وتحت ستار هذا القصف هجم قسم الكرخه والسيخ فاعتلوا التل بالقنابل اليدوية واحتلوا خنادق الثوار فيه بدون مقاومة كبيرة وبسقوط التل تم الاستيلاء على النجف وسكتت اصوات البنادق ولا اعرف من قتل في التل غير محمد الطريحي ، اما كيفية صعود التل فقد صنعوا ليلا سلماً من اكياس التراب بجنب منحدر التل وغربيه حيث لاينوشهم رصاص السور ومن هذا السلم كان الصعود والهجوم .

وربما استغرب القارئ هذه الهزيمة بعد تلك المقاومة غير ان الضروف التي احاطت بالثوار تهون هذا الاستغراب فقد عملت الحملة في خلال المفاوضة ان معظم الثوار يترك الخنادق مبكراً الى اهله للفطور بعد سهر الليل . وفي هذا اليوم خاصة لم يبق في التل الا شباب سئموا تلك الخنادق المليئة بمياه المطر في تلك الليلة وربما خدعوا على ترك التل من قبل من كانوا على علم بساعة الهجوم أو انهم اضطروا الى ذلك اضطراراً من قبل اهالي هذه

المحلة فقد شاهدنا وقت الهجوم بعض رجال هذه المحلة تحصن في مدرسة الشيخ ملا كاظم متظاهراً ضد الثوار المرابطين في التل كما شاهدنا عقيب احتلال التل بدقائق اول بادرة لخضوع النجف فقد اندفع موفدو الشرطة اللاجئون رافعين علماً ابيض غير ان الجنود رموا حامل العلم فوقع صريعاً في الجادة امام جدار مدرسة الملا كاظم المقابل للتل وسحبه الاطفال من رجله الى رحبة الحويش مشيعين له بالسخرية واللعنات .

وقد نشرت جريدة العرب بهذا الصدد في العدد (٨٩) البلاغ الرسمي وهذا نصه : (في ٧ نيسان سنة ١٩١٨ احتلت الجنود البريطانية التلول ويمكننا الآن من موقفنا المشرف ان نعضد السيد مهدي بن السيد سلمان شيخ محلة الحويش الصادق للحكومة وان نردع العصاة عن القيام باعمالهم العدائيـــة)

ومما لفت نظرنا ما قام به ثلاثة من كبار الضباط الانكليز بعد احتلال التل بساعتين من الدخول الى المدينة من طريق محلة الحويش وقد صحبوا معهم سالك التلفون وذهبوا رأسا الى بيت المجتهد السيد كاظم اليزدي الطباطبائي ويقال انه تحادث مع الحاكم العام في بغداد تلفونيا سائلا عن سلامته وسلامة البلد والغرض من ذلك بعث الاطمئنان في نفوس الشيعة في مختلف الاقطار وازالة وساوسهم .

١٤ — اليوم الرابع العصيب

اختبأ الثوار في البيوت واحتل الجيش السور وابوابه والدور الملاصقة له ووضعوا الاسلاك الشائكة في جادة السور المحيطة بالمدينة وكان الجنود مصوبين بنادقهم فلم تقع اعينهم في خلال الجادات والازقة النافذة الى جادة السور على نجفي صغيراً كان أو كبيراً رجلا أو امرأة إلا ورموه بالرصاص عن بعد فاضطرب الناس اشد اضطراب ودامت هذه الحال مدة يومين والذي شاع بين الناس ان عدد القتلى والجرحى في خلال اليومين العصيبين ما يزيد على عشرين ربما واعتقد ان العدد يزيد على هذا كثيراً فان الغريب والفقير والمشرد لا تبلغ انباؤهم الناس ومما جرى في خلال هذين اليومين العصيبين تخريب جميع الابنية والبيوت المشاده في اواوين السور وعددها لا يقل على خمسمائة بيت وكذلك جميع البيوت في خارج السور ومنها محلة كاملة تدعى محلة عطية أو (الجديدة) وهي تقع في جنب محلة العمارة مما يلي مقام زين العابدين وعدد دورها لا يقل عن خمسمائة ايضاً فيبلغ عدد الدور المخربة في خلال اليومين (١٠٠٠ دار) تقريباً ولا تسل عما ذهب فيها من التلف والضياع والنهب في الاثاث وتوابعها فان معظم هؤلاء السكان اسرعوا ناجين بأنفسهم واطفالهم وعائلاتهم الى داخل المدينة تاركين معظم ما يملكون . ومما جرى في هذين اليومين تحصين هذا السور الشاهق المطل على المدينة تحصينا يعجز عنه الوصف مئات الالوف من اكياس الرمل نظمت في اواوين السور وممره أو سطحه الاعلى وفي الادراج ووراءها طريق للجنود في الطابقين السفلي والعلوي ومن خلالها تظهر افواه المدافع والرشاشات والبنادق مصوبة على اهل هذا البلد الذي كان امينا ويا له منظراً مفزعا تضطرب عند تصوره الأعصاب وفي خلال هذين اليومين تسرب الى الاذهان ان هذه الأعمال هي مقدمـــة للاستباحة غير انني لم افهم من استباحة الجيوش التاريخية اكثر مما وقع في خلال هذين اليومين سوى التنظيم فقد روى المؤرخون الخوف والرعب والجوع والعطش ووصفوا اليأس والحيرة ووصفوا النجاة بالنفس وهكذا كان حتى ان سكان البيوت الواقعة عند رؤوس الجادات قرب السور لا يصلون الى بيوتهم الا من بيوت اخر ابوابها في الأزقة في حين ان (كل جادات النجف تنفذ الى السور) . وعليه ليس من الانصاف ان نخس هذا الجيش اشياءه قوته وبطشه وقوته ونقلل من شأنه عن جيوش هولاكو وتيمورلنك ونيرون . وهل استطاع هؤلاء ان يخربوا الف دار في خلال يومين في مدينة صغيرة مثل النجف أو انهم حصروا مدينة بكاملها لأجل عصابة عدد الأصابع لمدة شهر ونصف هذه هي مصائب اليومين العصيبين .

تتبع

محمد علي كمال الدين

المحامي
صادق كمونة
يتوكل في كافة الدعاوى داخل النجف وخارجها